١

الطفولة

"أقصى ما يمكننا أن نأمله لدى فراقنا الدنيا، أن يقول الناس
إنَّ هذا الرجل قد حاول، وإنَّ عائلته قد حاولت. هذا كلُّ
ما ينبغي السعي إليه في هذا العالم".
- جلالة الملك الحسين بن طلال طيَّبَ الله ثراه

"الجريمة الكاملة الوحيدة في هذا العصر هي أن تولَد عربيًّا".
- محمد الماغوط

التقى والداي في مخيَّم الوحدات للَّاجئين الفلسطينيِّين في العاصمة الأردنيَّة عمَّان. ويُعرَف هذا المخيَّم أحيانًا باسْم "مخيَّم عمَّان الجديد"، وقد تأسَّس عام ١٩٤٨م، ويضمُّ الآن ما يزيد على ٥٠,٠٠٠ لاجئ مسجَّل، وتلفُّه مستويات عاليًا جدًّا من البطالة والفقر. وكلُّ زائرٍ للمخيَّم يستطيع بوضوح أن يرى الرجالَ من كلِّ الأعمار يتوقون إلى العمل.

تعرَّف والداي بعضهما إلى بعض بواسطة خالي، الذي كان أيضًا الصديقَ الحميمَ لوالدي. ومن المحزن أنَّه عندما حان وقت زواجهما، كان خالي قد قُتل في صِدام وقعَ بين منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة والجيش الأردنيّ، حيث دفن في مخيَّم الوحدات، إلى أن جرى لاحقًا نقله ودفنه في مكانٍ آخر.

هناك نحو مليونَي لاجئ فلسطينيٍّ يعيشون في الأردنِّ، و٣٣٨ ألفًا منهم تقريبًا يعيشون في المخيَّمات. وقد حظيَ معظمُ اللاجئين الفلسطينيِّين بالجنسيَّة الأردنيَّة، على خلاف الوضع في لبنان حيث ظلُّوا أغرابًا محرومين الجنسيَّة وأيَّة حقوق ذات معنى.

كلَّما عدتُ إلى عمَّان، ألتقي والدي ونزور معًا مخيَّم الوحدات حيث أمضيتُ عدَّة سنوات من طفولتي. وأتذكَّر بوضوح كيف كانت أمِّي ترسلني وأنا في السابعة من عمري لشراء الخُضَر حيث تقدِّمها إليَّ امرأة ودود. وفي عام ٢٠١٥م؛ وبعد مضي سنواتٍ طويلة، زرتُ السوق نفسَه لأجدَ المرأةَ نفسَها لا تزال هناك، تقف في المكان نفسه الذي كانت تقف فيه منذ نحو ثلاثين سنة. تذكَّرت صوتَها فَورًا، وتذكَّرتُ معاملتها اللطيفة ووجهها اللطيف الجميل. لقد كان عدد سكَّان المخيَّم في ما مضى أكبر، لكنَّه لا يزال على حاله، ولا تزال سوقه النشطة كما كانت.

يقعُ مخيَّم الوحدات على مسافة يمكن قطعها سَيرًا على الأقدام من وسط عمَّان المفعم بالحيويَّة والنشاط. ولا يوجد سياج ولا جدران ولا أسلاك شائكة تفصل المخيَّم عن الأجزاء الأخرى من المدينة. وبسبب الاختناقات المروريَّة على بعض الشوارع الرئيسيَّة المزدحمة، فإنَّ التلوُّثَ كثيفٌ، ومعدَّله أعلى ممَّا هو عليه في الأجزاء الأخرى من عمَّان. ومن جهة الخدمات العامَّة وخدمات الرعاية الصحِّيَّة، فهي متاحة للاجئين الفلسطينيِّين، لذا تغدو مخيَّمات اللاجئين في الأردنِّ كأنَّها جزء من الأحياء الفقيرة في المدينة.

إنَّ هناك ما يزيد على ألفَي مشروع صغير في المخيَّم. وعند بداية التسعينيَّات، كانت معظم هذه المشاريع صغيرة وبسيطة، وتوصفُ بالعائليَّة، وبأنَّها ذات مستوى منخفض من الخبرة الفنِّيَّة، أمَّا الآن تضمُّ هذه المشاريع مصارفَ ومحالَّ جواهر، وصيدليَّات، ووكالات سفر، ومحالَّ لبيع الإلكترونيَّات، فضلًا عن أعداد كبيرة من محالِّ البقالة، ومتاجر الملابس وبيع الخُضر والفاكهة، علاوةً على منافذ بيع الوجبات السريعة الباقية على حالها.

لقد كان جدِّي لوالدي يعيش في مخيَّم الزرقاء للاجئين، وكان الموت دائم الحضور في عائلتي؛ فقد ماتت جدَّتي على نحوٍ مفاجئ وغير متوقَّع، وكان والدي أحد ثمانية أولاد لجدِّي، وله أربعة أشقَّاء وثلاث شقيقات. بعدها تزوَّج جدِّي ثانيةً، وكان لدى زوجته الجديدة ثمانية أبناء، وستُّ بنات (من زواج سابق)، وهكذا كانت الحياة فَوضَويَّة إلى أبعدِ حدّ.

انتقلَتْ والدتي ووالدي إلى الكويت أملًا في الحصول على حياة أفضل، وكانت أمِّي قد عانت مصاعب سابقة هي الأخرى؛ إذ كانت صغيرة جدًّا عندما تُوُفِّيت والدتُها، وتزوَّج والدها مرَّة أخرى. وفي الكويت عمل والدي في عدَّة وظائفَ، مثل موظَّف مبيعات في عدد من منافذ بيع التجزئة، ولا سيَّما في تجارة الملابس، ثمَّ عمل مدرِّبَ سِياقةٍ يعلِّم الناس قيادة المركَبات، لكنَّه أمضى معظم وقته وهو يعمل سائقَ شاحنة، وأخذته رحلاته في مركبته الكبيرة غير المريحة مسافات بعيدة إلى العراق وأحيانًا إلى ألمانيا.

واستقرَّ والداي في مدينة الساليَّة، وهي مدينة في محافظة حولِّي الكويتيَّة. وفي هذه المدينة ١٢ مجمَّعًا، وكلَّما اتَّجهَتِ المجمعاتُ إلى داخل الحيِّ صارت المباني سكنيَّة، وغير تجاريَّة. أمَّا المجمَّعات الأقرب إلى ساحل الخليج العربيِّ فهي تجاريَّة، وفيها عَقَارات سكنيَّة راقية، غير أنَّ المناطق السكنيَّة الداخليَّة مكتظَّةٌ وتضمُّ أعدادًا كبيرة من سكَّان أتوا من شبه القارَّة الهنديَّة، ومن عرب أتوا من دول عربيَّة خارج منظومة دول الخليج. وأتذكَّرُ الساليَّة بوصفها مدينةً صغيرةً تضمُّ في جنباتها كثيرًا من المساجد، ومعرضًا للأحياء المائيَّة، ومركَزًا علميًّا، واستادَ كرةِ القدم، وكنيسة لطائفة الروم الكاثوليك، ومكتبًا للأحوال المدنيَّة والجوازات، ومرأبًا للسيَّارات بتجهيز جيِّد يقع قرب الشارع الدائريِّ الخامس. وأعتقد أنَّها تفخر الآن بوُجود سينما ذات شاشة عرض عملاقة. أمَّا مراكز التسوُّق الكبرى (المولات)، فتشمل سوق الساليَّة، وهو أوَّل متجر من نوعه في الكويت، وكذلك متجر المارينا في مركَز المارينا العالميِّ للتسوُّق والترفيه، وكذلك مركز العمريَّة.

وعنِّي أنا، فقد ولدتُ في الكويت في ٢٥ حَزيران/يونيو ١٩٧٠م، ولديَّ سبعة إخوة وشقيقتان، وأنا الثاني بينهم من حيثُ العمر، وأشقَّائي هم رأفت، وهو أكبرنا، ومدحت (الذي يعيش الآن في ويلز)، وممدوح (الذي يقيم الآن في السويد)، وبلال (وهو في السويد أيضًا)، وسعادة (يعيش في عمَّان)، وصبحة (شقيقتي في عمَّان)، ومحمَّد (يعيش ويعمل في لندن)، وسامية (شقيقتي الأخرى وهي في السويد)، أمَّا أخي الأصغر فهو سلامة وعمره ١٨ سنة (يعيش في عمَّان أيضًا).

وبسبب سفر والدي وغيابه المستمرِّ عن المنزل، فقد ربَّتنا أمِّي الشُّجاعة والمجِدَّة بمفردها، وكان ذلك صعبًا جدًّا. وما زاد الطينَ بِلَّةً، أنَّ حافلةً صدمت أخي الأكبر في أثناء عبوره الشارع، وكان حينها في السادسة من العمر، وكنت أنا في الخامسة، وحينها قال والدي للسائق: "لا تقلق! نحن الطرف المخطئ لأنَّه [أي الصبي] كان يجتازُ الشارع راكضًا". لم يكن والدي يريد للسائق أن يقعَ في مأزق، أو أن يُطرَدَ من عمله؛ لأنَّ والدي يعمل سائقًا أيضًا. وقد أدَّتِ الحادثة إلى إصابةٍ في رأس رأفت عرَّضته لفقدان النطق. وبدا لمدَّةٍ طويلة كما لو أنَّه كان يرتدُّ إلى عمر الطفولة الباكرة. ومع أنَّ حالته تحسَّنَتْ نوعًا ما، فإنَّه لم يتمكَّن قَطُّ من أداء أيِّ عمل حقيقيٍّ، وظلَّ يعاني مضاعفاتٍ طويلةَ الأمد. وعندما قرَّر والديَّ أن يزوِّجاه بفتاةٍ من عائلتنا (بعيدة الصِّلة)، فقد دُهشت الفتاةُ عندما قابلته أوَّلَ مرَّة؛ إذ لم يكن أحد قد أخبرها شيئًا بشأن حالته العصبيَّة، لكنَّهما تزوَّجا وأنجَبا طفلَين رائعَين. كنتُ أحاول أن أساعده باستمرار؛ حيث إنَّه لم يكن قادرًا على إعالة نفسه، وكانوا يدعونني دائمًا "بالأخ الأكبر"؛ لأنِّي كنتُ أتولَّى القيام بالأمور الأخرى. وعلاوةً على مساعدة رأفت، فقد ساعدتُ عددًا من إخوتي الآخرين في دخول المملكة المتَّحدة، أمَّا رأفت وزوجته فلا يزالان يمكثان مع والديَّ في عمَّان.

وما أتذكَّره من إمارةِ الكويت أنَّها كانت ذات مُناخ حارٍّ جدًّا، وكنَّا نعيش فيها، حالُنا حالُ غيرنا من الفلسطينيِّين، في مجمَّع سكنيٍّ تقليديّ، حيث يحتوي كلُّ

مجمَّع على عشر شقق، في كلِّ شقَّة غرفتان، وكان كلُّ مجمَّع يضمُّ في أرجائه ما لا يقلُّ عن مئة طفل، وأعدادًا أخرى من البالغين. لم تكن هناك ساحاتٌ للَّعب، ولا أماكن يمكن أن نذهب إليها. فكنَّا نُرصُّ بعضنا إلى بعض، وننام في أَسرَّةٍ طابقيَّة قديمة وغير مريحة، ولم تكن لدينا مرافق في الحمَّامات، بل كنَّا نغتسل بماء نسكبه من الدِّلاء، وكانت أمِّي "تحمِّمنا" مرَّةً واحدةً في الأسبوع بمرشاش الماء، كي تزيل الرمل والأوساخ عن أجسادنا. وقد كانت حريصةً على جعل البيت يلمع من النظافة، وأتذكَّر أنَّها كانت طَوالَ الوقت تنظِّفُ البيتَ.

إلَّا أنَّ طفولتي، حالُها حالُ معظم الأطفال كما أظنّ، كانت سارَّة بما يكفي، ولم تشهَدْ أحداثًا مأساويَّة محدَّدة، ولا ترجُّحًا حادًّا بين صعود وهبوط (ما عدا الحادث الذي تعرَّض له رأفت). وسرعان ما أدركتُ أنِّي مواطنٌ من الدرجة الثانية، وكان أمرًا معتادًا وعلنيًّا أن أُدعى بلقب "بلجيكي"، ربَّما نسبةً إلى بلجيكا، ذلك البلد الذي كان تاريخيًّا مؤيِّدًا للشعب الفلسطينيِّ. كما صرتُ أدرك أنِّي أذهب إلى مدارس مختلفة عن تلك الذي يرتادُها الأطفال الكويتيُّون العاديُّون. وكنَّا نحن- أطفالَ عائلتنا- نذهب إلى مدارسَ تداومُ على فترتَين، حيث يذهب بعضنا في الصباح، ويذهب آخرون إلى مدارسهم بعد الغداء. لقد كانت عائلتي فقيرةً، لكنَّها فخورة. ولم نستطع أن نوفِّر أيَّة مدَّخَراتٍ ماليَّة، لكنَّنا كنَّا، بوصفنا أطفالًا، وبوصفنا عائلةً، نحصل على ما نحتاج إليه، لكنَّنا كنَّا نكافحُ حقًّا.

وفي مرحلة المراهَقة، كنتُ أحتاج إلى شهر لأوفِّر كلَّ ما أحصل عليه من نقود كي أتدبَّر أمر الذهاب إلى مطعم ماكدونالدز لشراء شطيرة برغر واحدة، ودون أن أشتريَ حلوى. وكان والداي صارمَين، حتَّى إنَّ أبي كان يضربني بين الحين والآخر، وذلك عندما يشعر بأنِّي "أستحقُّ" ذلك. رغم ذلك، فقد كنَّا نتمتَّع بالكثير من الضحك والمزاح، وكان والداي فخورَين بنا، ويحبَّاننا بغير حدود.

وكما ذكرت، فإنَّه لم يكن لدينا أماكن نلعب فيها، باستثناء الشارع، حيث كان يمكننا أن نلعب بالكرة في مكانٍ ما، أو كنَّا نجمع كلَّ ما نستطيع جمعه من بصل وبطاطا أيَّام الخميس كي نخرج ونشويها في الشارع. ومن المحزن أنَّ الذهاب إلى بركة السباحة العامَّة المحلِّيَّة كان يكلِّف الكثير، لذا لم يسبق أن حظينا بزيارات منتظمة إليها.

❖❖❖

ولم يكن والداي متديِّنَين، ويسعُني أن أُقسم وأقول بصدق إنِّي لم أذهب مع والدي إلى المسجد قَطّ، حتَّى أيَّام الجُمَع. والمرَّات القليلة التي ذهبتُ فيها إلى المسجد كانت ضمن الأنشطة اللامنهجيَّة التي تُنظَّمُ للطلَّاب وعائلتهم. وفي المقابل، كنَّا نذهب أيَّام الجُمَع أحيانًا مع والدي أو والدتي إلى الصحراء، أو حتَّى إلى أبعد من ذلك، أي إلى شاطئ البحر.

ولم أكن قد سمعت مصطلح "الجهاد" بتاتًا، لا في البيت ولا في المدرسة ولا في الشارع. وعلى نحوٍ مشابه أيضًا لم أسمع قَطُّ مصطلح "سُنَّة" أو "شيعة". أمَّا في المدرسة، فقد كانت مادَّة التربية الدينيَّة تتكوَّن من تلاوة كلِّ طفل للقرآن دون فهم ما يُقال. وإذا أخطأ الطالب في أيَّة آية، فيمكن أن يتلقَّى صفعةً مؤلمةً على الوجه، ولم نتعلَّم في المدرسة أيَّ شيء ذي قيمةٍ عن الإسلام، فضلًا عن عدم تعلُّم أيِّ شيء عن الديانات الأخرى.

❖❖❖

وعند بلوغ كلِّ فلسطينيٍّ سنَّ الثامنة عشرة، فإنَّ عليه أن يجدَ لنفسه "كفيلًا" كويتيًّا إذا أراد الحصول على نوع ما من التعليم أو التدريب أو العمل. وعليه أن يغادر البلاد إذا أخفق في العثور على واحد. أمَّا من جهةِ التفكير في دخول فلسطينيٍّ الجامعةَ، فكان يُعدُّ أمرًا لا جدوى منه. وعليَّ هنا أن أقول إنَّ الكويت كانت جيِّدةً لي؛ فقد

حصلتُ هناك على تعليمي الابتدائيِّ الأساسيّ، لكنِّي عندما أفكِّر في السنوات الأولى من حياتي، فإنِّي أظلُّ أسأل نفسي: "أيَّتها الكويت! لقد منحتِنا التعليم المدرسيّ، فلماذا لم تمنحينا أيَّة حقوق؟".

❖❖❖

ورغم المشاقِّ والعنصريَّة والتحيُّز التي عشتُها في حياتي المبكرة، فقد راحت ثقتي بنفسي تتكوَّن رغم تدنِّي الحال. ولمَّا كنتُ أنظر في أحوال بعض الفلسطينيِّين من حولي ممَّن سافروا إلى أميركا لتحقيق النجاح، والذين ازدهرت حياة عائلاتهم بسبب المال الذي كانوا يحوِّلونه إليهم بانتظام من الولايات المتَّحدة ومن غيرها[1]، وقد اتَّخذتُ من انتصاراتهم مؤشِّرًا إلى أنِّي أستطيع أن أغادر البلاد وأنجح في مكان آخر، رغم كوني فلسطينيًّا. ولربَّما كان هذا ناجمًا جزئيًّا عن تفكير في اللَّاوعي، لكنَّه كان أيضًا ناشطًا في عقلي الواعي.

❖❖❖

عندما كنتُ يافعًا وساذجًا في الثامنة عشرة من العمر؛ وبقلب مثقَل بالحزن، تركتُ عائلتي وغادرت الكويت متَّجهًا إلى الأردنّ. كان لدينا القليل من المال، ولذلك لم يكن في وُسعي أن أشتري تذكرةَ طائرةٍ بدل القيام بهذه الرحلة على متن حافلة غير مريحة، ومكتظَّة جدًّا وسط حرارة خانقة.

لقد صرتُ وحيدًا دون عائلتي، وقد كرهتُ ذلك. ربَّما يعود ذلك إلى أنَّه كان عليَّ أن أعيشَ مع عمَّتي انتصار، التي لم يسبق لي أن قابلتُها من قبل، كما أنِّي كنتُ أفتقدُ عائلتي. كنتُ شابًّا عاديًّا، ولديَّ اهتماماتي وانشغالاتي المعتادة، لذا كان من الطبيعيِّ أن أرغب أن تكونَ لي غرفةٌ خاصَّة.

---

١) كما هو معلوم، فإنَّ للتحويلات أهمِّيَّةً قُصوى في اقتصاديَّات بعض الدول مثل لبنان ومصر.

أنجبتْ عمَّتي ١٨ طفلًا. وعندما ذهبتُ لأعيشَ عندها، كان هناك ١٤ طفلًا لا يزالون يعيشون معها في المنزل نفسه. كان هناك عددٌ كبيرٌ جدًّا منَّا، حتَّى إنِّي اعتدتُ أن أنامَ على سطح المنزل. بعد ذلك رحلتُ لاحقًا من منزل عمَّتي لأقطنَ في منطقة "الهاشمي الشمالي" في عمَّان، وهو حيٌّ يضمُّ الكثيرَ من الفلسطينيِّين. استأجرت هناك غرفةً علويَّة كانت في الواقع مخزنَ بيتٍ، لكنِّي زيَّنتها وجعلتُها جميلةً ومنزليَّة. لقد كنتُ محتاجًا حقًّا إلى خلق ذلك الشعور "بالعائلة".

وسرعان ما شعرتُ بأنِّي كنتُ أحتاج أيضًا إلى نوع من التعليم أو التدريب، وهكذا سجَّلت في برنامج شهادة الثانويَّة العامَّة في كلِّيَّة عمُّون للتعليم الفندقيِّ والسياحيِّ، والتي صارت اليوم كلِّيَّة الأردنِّ الجامعيَّة التطبيقيَّة للتعليم الفندقيِّ والسياحيّ، وكانت دائمًا أفضل كلِّيَّة على المستوى الجامعيِّ متخصِّصة في التدريب على الإدارة الفندقيَّة والسياحيَّة. وكانت قد تأسَّست هذه الكلِّيَّة عام ١٩٨٠م، وظلَّت دائمًا تتبوَّأ مركَزًا مرموقًا بين المؤسَّسات التعليميَّة في الشرق الأوسط. ولم يكن لدى والدي ما يرسله إليَّ من مال يكفي لإرسالي إلى جامعة، لذا كانت تكاليف كلِّيَّة عمُّون (الرخيصة نسبيًّا) ملائمةً لأسجِّلَ فيها.

عندما كنتُ طالبًا، عملتُ في كثيرٍ من المقاهي والمطاعم، فعملت في بداية الأمر ساقيًا، ثمَّ صرتُ نادلًا. ورغم أنِّي أحمل جوازَ سفرٍ أردنيًّا- حيث كانت سياسة الحكومة الأردنيَّة تسمح للفلسطينيِّين بالعمل والسفر لئلَّا يكونوا عبئًا- فإنِّي لم أتمكَّن من الخروج إلى أيَّة وجهةٍ، ولم تكن الحال مواتيةً من حيث عدم وجود "واسطة" قويَّة من أشخاصٍ في الحكومة والمجتمع، وهي كثيرًا ما تيسِّرُ حياة الناس في الأردنِّ عمومًا.[٢] وأقول إنَّ الحدَّ وصل بي إلى عدم معرفةِ أحدٍ أصلًا، لذا كنتُ بلا تأثير حقيقيّ. وحيث إنَّ الهوَّة بين الفقراء والأغنياء كانت واسعةً في الأردنِّ حينها، فقد جعلتْ قلَّة "الواسطة" وضعي أسوأ جدًّا.

2) Robert B. Cunningham and Yasin K. Sarayrah (1993), Wasta: The Hidden Force in Middle Eastern Society, London: Praeger.

أودُّ أن أذكرَ هنا حقيقة أنَّ والدي، كان شخصًا بطموح سياسيٍّ وثقافيّ؛ فرغم أنَّه كان يعمل سائقَ شاحنة، فقد أنتجَ مسرحيَّات فلسطينيَّة على مستوى ضيِّق، بل أخرج بعضَها أحيانًا. وحتَّى أضعَ هذا الأمر في سياقه، فلا بدَّ أن نتذكَّر أنَّه إبَّان سبعينيَّات القرن العشرين وثمانينيَّاته، كان المسرح الفلسطينيُّ يُعدُّ شكلًا بسيطًا من أشكال المقاوَمة. وكان كذلك مصدرًا من مصادر الهُوِيَّة الوطنيَّة، وقد كان هو مسرحَ منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة. كان والدي وأصدقاؤه الكثيرون المتحمِّسون مثله قد أسَّسوا مجموعة مسرح في الكويت، ثمَّ في الأردنِّ، عندما انتقل إليها حيثُ واصلَ العمل. وكان يلعبُ كلَّ الأدوار: يمثِّل ويُخرج ويُنتج ويرسم المشاهد، ويقوم بأيِّ شيء آخر تدعو إليه الحاجة. لكنْ كان عليه أن يراعيَ أقصى درجات الحرص في ما يقوله.

وأقول هنا ثانيةً إنَّ من المهمِّ تذكُّرَ السياق الأشمل؛ فمنذ عام ١٩٤٨م وما تلاها، أُجبر الفلسطينيُّون على الاختيار ما بين الحصول على الهُوِيَّة الإسرائيليَّة الزرقاء، أو أن يغادروا وطنهم للعيش بصفة لاجئين خارج بلادهم، لتكونَ حالُهم هي حال بقية أخواتهم وإخوانهم النازحين في المخيَّمات حول العالم. وحيث إنَّ المسرح الفلسطينيَّ كان خاضعًا لسلطة الدولة التي يوجد فيها- وهي إسرائيل في هذه الحالة- فإنَّ والدي، وكثيرين غيره عملوا بجدٍّ من أجل ضمان أن يبقى المسرح فلسطينيًّا بهُوِيَّته الخاصَّة، ومرتبطًا بقوَّة بجذوره الفلسطينيَّة والعربيَّة.

لقد كانت هناك نهضة فلسطينيَّة وعربيَّة خلَّاقة منذ أواخر ستِّينيَّات القرن العشرين، ولا سيَّما في أواسط السبعينيَّات شملت كثيرًا من المجالات الثقافيَّة والوطنيَّة، بما في ذلك المسرح. ورغم السيطرة الإسرائيليَّة الصارمة، فقد كانت هناك فرقٌ مسرحيَّةٌ منتشرةٌ في كثيرٍ من القرى، ومنها المسرح الناهض في مدينة حيفا، والمسرح الحديث في مدينة الناصرة، كما وجد بعضها في مدينة القدس منذ عام ١٩٦٧م، إلى أن تأسَّس المسرح الشهير بِاسْم "الحكواتي الفلسطينيّ".

وبحلول النصف الثاني من ثمانينيَّات القرن العشرين، تنامت كثيرًا أعدادُ المتحمِّسين للفنِّ والمسرح، والتحق كثيرون بالمعاهد التعليميَّة، وحصلوا على شهادات، ممَّا أدَّى إلى حدوث ازدهار في هذا المجال. وفي عام ٢٠١٥م، كان هناك نحو عشرون فريقًا ومسرحًا، معظمها يتلقَّى دعمًا من وزارة الثقافة الإسرائيليَّة، وتكاد لا توجد هناك مسارح مستقلَّة لا تتلقَّى دعمًا من المؤسَّسات الحكوميَّة، ما عدا مسرحًا أو مسرحَين يرفضان العمل مع تلك المؤسَّسات.

ورغم ذلك، فإنَّ عدم المساواة من حيثُ مبالغ الدعم المقدَّمة إلى الفرق والمسارح الفلسطينيَّة يكشف عن التمييز القائم على أساس الانتماء السياسيّ؛ لأنَّ ٩٧٪ من مبالغ الدعم تذهب إلى المسارح والفرق اليهوديَّة، بينما تُخصَّص نسبة ٣٪ فقط للمسارح والفرق العربيَّة. وتُجمَعُ الموازنةُ أصلًا من الضرائب والأموال التي تدفع إلى الدوائر الإسرائيليَّة، فإذا كنَّا، نحن الفلسطينيِّين، نمثِّل حاليًّا ٢٠٪ من سكَّان الداخل، فيُفترَض منطقيًّا أن تردَّ إلينا الدولة ٢٠٪ من الأموال المخصَّصة للمسرح.

❖❖❖

مع نهاية عام ١٩٩٠م، غادرَ والداي ومعهما أشقَّائي الكويت عند اندلاع حرب الخليج الثانية[٣]، والتحقوا بي في الأردنّ. وعندما علمتُ أنَّهم يخطِّطون للالتحاق بي، رحتُ أبحثُ عن مكانٍ نعيش فيه معًا، وعثرتُ على شقَّة في منطقة الدوَّار الأوَّل، جبل عمَّان.

وكان والدي قد خسر كلَّ أمواله في الكويت، وخسر كذلك مقتنياته الشخصيَّة من سيَّارات الشحن التي كان قد اشتراها، والأثاثَ كلَّه؛ فقد كان والدي عضوًا في

٣) بدأت الحرب بتاريخ ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠م، عندما غزا ١٠٠ ألف جنديٍّ عراقيٍّ الكويت، وانتهت في ٢٨ شباط/فبراير ١٩٩١م.

منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة، وكان أحَدُ إخوتي بين الذين التحقوا بالعمل الفدائيّ[٤]، وكان قد تدرَّب في ليبيا، لذا كان أفراد عائلتي قلقين جدًّا في أثناء الحرب حِيال العواقب المحتملة التي قد تنجم عن معتقداتهم وانتماءاتهم السياسيَّة التي تمسَّكوا بها بشدَّة. وهكذا غادرَ والداي بسرعةٍ، ومعهما جميع أفراد العائلة.

عندما كنَّا نعيش في الكويت، كنَّا نزور بين الحين والآخر أقاربَ تربطهم بنا صلاتٌ قُربى بعيدة ويقيمون في الأردنّ. وكنَّا نسافر إلى العراق أيضًا، ولا سيَّما العاصمة بغداد، حيث كان لوالدي أصدقاء كثرٌ هناك. وكنَّا حينها نعتقد أنَّ الأردنَّ مكانٌ يُستحبُّ العيش فيه، وهو حقًّا كذلك، لكنَّ اللجوء والفقر يعنيان وجودَ مشاقَّ مستمرَّة.

ومع أنَّ جميع أفراد عائلتي كانوا معًا في الأردنّ، فإنَّ قلبي كان يراودني كي أغادر للعثور على حياةٍ أفضلَ في مكانٍ آخر، وكنت حينها أحلمُ بالعيش في إنكلترا. و"إنكلترا" التي كنت أتخيَّلها تعود في كثير منها إلى صفحات شكسبير (Shakespeare)، وكنت أعرف أنِّي إذا وصلت إلى "منحدرات دوڤر البيضاء"[٥] (The White Cliffs of Dover) فإنَّ حياتي سوف تتغيَّر، وجاءت الصدفة على شكل لقاء مع محمَّد العدوان، الذي كان يعمل مستشارًا لجلالة الملك الراحل الحسين بن طلال.

وكانت زوجة محمَّد العدوان أميركيَّة، وتحبُّ تذوُّقَ ما تطبخُه أمِّي. ونتيجة ذلك، كانت أمِّي ترسل أطباقًا إلى منزلهم، وكنت أنا أقوم على الضيافة عندهم عندما يستضيفون مناسباتٍ كبرى. وفي إحدى تلك المناسبات، قابلتُ شقيقَ السفير الأردنيِّ في لندن، والذي أخبرني بأنَّ شقيقَه يبحث عن شخص ما يعمل عنده في مطبخ منزله اللندنيِّ، وعندها قلت على الفور: "حسنًا، أريد هذا العمل".

---

٤) لمناقشة تاريخ الفدائيِّين انظر:
François Burgat (2003), Face to Face with Political Islam, London: I. B. Tauris.

٥) منطقة تقع جنوب المملكة المتَّحدة بمحاذاة مضيق دوڤر الذي يقع ما بين إنكلترا وفرنسا. وهناك أغنية مشهورة تحمل العنوان نفسه (الناشر).